سينما

بيروت: خراب مرفأ وعَفَن سلطة

«باطل الأباطيل الكلّ باطل»

لم تخرج بيروت من نكبة الرابع من أغسطس 2020، بينما يستمرّ مسؤولون وفنانون في التبرؤ من مسؤوليا تهم الأخلاقية والإنسانية على الأقلّ إزاء الناس والبلد

نديم جرجوره

الكلمات المطلوبة في لحظة الخراب اللبناني مفقودة. العجز عن كتابةٍ خارج الخراب اللبناني ماثلٌ في قوّة حضورٍ، تنقضّ عليه رغبة في معاينة بعض ذاك الخراب. بيروت تختنق، ومع اختناقها، يتأكّد . أكثر من أي وقت ماضٍ . أنّ كلّ شيء مُنتهٍ. الشارع مُحطّم من دون حاجة إلى أنقاض. الأبنية معطوبة من دون حاجة إلى انهيارات. الناس مُتعَبون فالجريمة مخيفة، ومُتعِبون أيضاً لبقائهم صامتين، فالصمت أكثر أذيّة من انفجار مرفأ، وتنصّل من مسؤوليات، واتّهاماتٍ يتبادلها مسؤولون عن خرابٍ واختناقٍ وعطب مع آخرين، لتبرئة ذاتٍ مُتّهمة من دون حاجة إلى تنقيب وتحقيق لشدّة وضوح جُرمها في العيش اليوميّ. الجميع معطوبون، والعطب لن يُشفى منه أحدٌ. الكذب مستمرٌّ في التفنّن بابتكاراتٍ جديدة، كافتراء وتزوير يحصلان في إداراتٍ تنفضّ عن مسؤولياتها، وفي موتٍ يتجوّل مبتسماً هنا وهناك. افتراء وتزوير ينبثقان من كلامٍ يتفوّه به مسؤولون، في راهنٍ موبوء بنكباتٍ يُنزلونها في مدينة وأناسٍ وحياةٍ. مُغنّية تصطنع تعاطفاً ممجوجاً أمام كاميرات مُصابة بفقدان أصول مهنة وأخلاقياتها. وزير يحمل مكنسةً لمساعدةٍ ناقصة، فيواجَه بشتائم وطرد ومُعاقبة شكلية. وزير يهتمّ بمتحفٍ وطني مُفرّغ أساساً من سيرة بلدٍ وتاريخه، فالسيرة والتاريخ يُكتبان يومياً خارج المتحف، بالقتل والإهانة والنهب وسوء الإدارة والفساد والفوضى والتسلّط والقمع والتهجير والإقصاء والإلغاء والتغييب.

انفجارٌ يحصل في مرفأ يتحوّل إلى «جمهورية موز» كالبلد برمّته، تليه إطلالات مُخادعة لمسؤولين وفنانين يريدون تبرئة ذاتٍ من جُرمٍ يُتّهمون به، وأقلّ إثباتات الجرم متمثّلٌ بتخلّيهم عن مسؤولياتهم عن بلدٍ واجتماع وناس. ماجدة الرومي تذرف دمعاً في منطقة الخراب، وتقول خوفاً وقلقاً على «أبنائها» وبلدها، رافضةً التعليق على حذف جملة من أغنية لها في عيد الجيش اللبناني مطلع الشهر الجاري، بحجّة أنْ لا المكان ولا المناسبة ملائمان لتعليق كهذا؛ ومتناسيةً غناءً تصدح به أمام أصحاب سلطات، يتحمّلون مسؤولية خراب مزمن وموتٍ مستمرّ ونهبٍ متتالٍ؛ ومتغاضيةً عن خضوع مُذلّ أمام وليّ عهدٍ، أبرز إنجازاته الوطنية منشارٌ يُخاطب به الآخرين؛ ومتناسيةً انصرافاً لها إلى حكّام محليين، غناءً مُعلناً وتبجيلاً مبطّناً، بين حينٍ وآخر. في النكبة اللبنانية، يُدردش رئيس البلد مع صحافيين يفقدون حدّاً أدنى من مصداقية مهنة، ومصداقية ذات، ومصداقية انتماء إلى بلدٍ منكوبٍ بمسؤوليه المتبارين بكيفية تحطيمه بُعد نهبه، فلا يُجادلون ولا يواجهون ولا يُعلنون وقائع مُتداولة، ولا يتجرّأون على استدراج أحدٍ من المسؤولين إلى تلك الحقائق والوقائع. في النكبة اللبنانية، يخرج مسؤول من مخبأ ليعلن تعاطفاً مع بلدٍ يتحطّم، ومع أناسٍ يموتون، أو يُجرَحون فيُشرف بعضهم على الموت لخطورة جروحه، أو يُفقدون فيتلكّأ مسؤولون عن مهمّة البحث عنهم، فإذا ببعض المفقودين يخرج إلى الهواء ميتاً لتلكؤٍ في البحث المحترف عنه؛ ولا يرفّ جفن لمسؤول، ولا يُحاكم متلكّئ عن مهنة وأخلاق وواجب. أما وزيرا المكنسة (وزير التربية طارق المجذوب) والمتحف الوطني (وزير الثقافة عباس مرتضى)، فتعاطفهما مع «الحدث الجلل» يُثير ضحكاً وسخرية لشدّة النفور من مشهدهما الفاقد مصداقيّته أمام كثيرين.

> اللاحق لانفجار مرفأ بيروت أعنف منه أو مُكمّل له

اللاحق لانفجار مرفأ بيروت (4 أغسطس/ آب 2020) حافلٌ ببطشٍ أعنف من الانفجار أو مُكمّل له، لاختزاله (الانفجار واللاحق عليه معاً) بؤس بلدٍ بمن يُسبِّب له ولناسه نكبة تلو أخرى؛ وحافلٌ ببؤسٍ أسوأ من نتائج الانفجار أو مُكمّل له، لاختصاره (الانفجار واللاحق عليه معاً) معنى خذلان شعبيّ، رغم استثنائية مواجهات فردية ورمزيّتها، والخذلان يترافق ووقاحة سلطة تعنيها صورتها لا تحسين جوهرها، والجوهر والصورة وجهٌ واحد لعفنٍ واهتراء واحتضار قاتل.

بيروت منتهية. لبنان مغيّب. الاهتمام الدولي به منبثقٌ من مصالح أكبر منه ومن نكبته. المسؤولية المحلية تزوير وافتراء وكذب. القتل ميزة أناسٍ مكبّلين بالوقاحة والعفن، وأناسٍ منذورين للصمت والخضوع. الصورة الأصدق في المشهد المعتم والثقيل كامنةٌ في خرابٍ يُذكّر بـ«الرؤيا... الآن هنا»، فكلّ شيء آخر باطل، و«باطِلُ الأباطيل، الكلّ باطِلٌ» (سفر الجامعة، 1 . 2).

كارثة بيروت: لا اعتراف بالجُرم ولا توبة (فرانس برس/Getty)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

وثائقيّ عن «أمّة الطفل الواحد»

من المخجل أن يكون للصيني أخٌ

محمد بنعزيز

جيالينغ زهانغ (إلى اليسار) ونانفو وانغ عام 2019 في أوتاه (تشاد هيرست/Getty)

بدأ بول غوغان مذكّراته بسؤال الناقد الفني العظيم، المجهول حينها، شارل بودلير: «قُلْ لي ماذا رأيتَ؟». هكذا حدّد بودلير مهمّة الناقد. في «أمّة الطفل الواحد» (2019)، وثائقيّ نانفو وانغ وجيالينغ زهانغ، هناك عشرات الوثائق الدعائية المصوّرة والمكتوبة، التي أنتجها الحزب الشيوعي الصيني لإقناع الشعب بالطفل الواحد والفكر الواحد والزعيم الواحد. رجلٌ وامرأة وبينهما طفل وحيد سعيد. يتكرّر هذا في دعاية ممنهجة ذات نَفَس طويل في الصحف والمدارس، وعلى الجداريات وشاشات التلفزة. النتيجة أنّ سياسة الطفل الواحد صنعت قوّة الأمة وقلّصت أعباء الدولة، لأنّها سياسة منعت ولادة 338 مليون طفل. واحتفالاً بتحقيق الهدف، ظهرت جوقة كبار السن في ترداد مدائح الحزب، وجوقة أطفال ينشدون في المدرسة: «حياتنا رائعة جداً في ظلّ هذه السياسة الوطنية».

الصُوَر المعروضة حقيقية ورسمية وعلنية، أنتجتها الدولة وأدمجتها المخرجتان في فيلمهما، ثم قدّمتا شهاداتٍ من أسرتيهما وأبناء قريتيهما. شهادات لمن عاش التجربة وقتاً طويلاً. وضعت المخرجتان السردية الحكومية في مقابل السردية الشعبية لتخريب الأولى. يظهر أنّ الإنجاب محنة في الصين، وأنّه من المخجل أن يكون للصيني أخ. باستجواب الشهود عمّا عاشوه، حصلت المخرجتان على شهادات استرجاعية لأشخاصٍ مرعوبين مِنْ أنْ يعاقبهم الحزب.

> السردية الحكومية مقابل السردية الشعبية لتخريب الأولى

شهادات تدْحض الدعاية الرسمية. شهادات كانت سرّية، وستبقى سرّية غالباً، لأنّ الدولة البوليسية لن تَسْمح بتصويرها.

في المناطق الريفية الصينية، مسموحٌ بإنجاب طفلين، شرْط أنْ تفصل بينهما 5 أعوام. في حالة المخالفة، يُهدَم بيت الأسرة، وتصادَر ممتلكاتها، وتُختَطَف النساء ويُقيَدن، وتُجهَض الأمّهات بالإكراه، حتّى وإنْ كان الحمل في شهره الـ8، ويتمّ تعقيمهنّ إجبارياً. في حالة الولادة، يُصادَر الطفل، ويتخلّص الحزب منه. تروي قابلةٌ، أنجزت 60 ألف عملية إجهاض وتعقيم، كيف هربتْ منها امرأة حامل عارية وهي تهذي، لتنجو من الإجهاض والتعقيم. تحكي القابلة وتضحك وتبكي وتقيس كمية الدم الذي سال على يديها. جرى هذا في ثمانينيات القرن الماضي وما بعدها. جرى في صمتٍ بالصين، بينما العالم مُنشغل بالحرب الباردة والحرب العراقية الإيرانية، ثم بالعولمة وصدام الحضارات وأسامة بن لادن. أثناء ذلك، كان حزب الرفاق يُخطّط في أرحام النساء بمنطق التخطيط نفسه لبناء مصانع وطرق وموانئ.

تقوم الدعاية المُصوّرة بتجميل هذا. دعاية هدفها تغيير أفكار الناس، والتأكيد على أنْ الحزب ليس معصوماً. دعاية مدعومة بجزرة وعصا. على الجدران، إعلانات تقول: «أبلِغْ عن أسرةٍ لديها أكثر من طفل، واحصل على 120 دولارا»، و«كُلّ من ينتهك سياسة الطفل الواحد تُصادَر ممتلكاته».

عقاباً، تُعلّق الحكومة لوحات على أبواب المنازل، فيها تنقيط لسلوك الأسر، الحسن والسيئ. النتيجة؟ برمجة عصبية أنتجت اعتزازاً مُخجلاً بسياسة الحزب. مثلاً: تُفسّر قيادية حزبية ما جرى، بقولها: «في حرب التعداد السكّاني، فضّلتْ المصلحة القومية على مشاعري الشخصية».

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

أفلام جديدة

■ Morbius لدانييل إسبينوزا، تمثيل جاريد ليتو ومات سميث وأدْريا أرجونا (الصورة): إنّه عدو الرجل العنكبوت في سلسلة الـ«كوميكس» المعروفة والخاصة بـ«مارفل»، والفيلم هو ثاني أعمال «عالم مارفل سوني» بعد «فينوم» (2018) لروبن فلايشر. بعد إصابته بمرض نادر في الدم، يحاول مايكل موربيوس أنْ يُعالج نفسه. من غير قصد، يُصاب بعوارض مصّاصي الدماء.

■ Birds Of Prey لكاتي يان، تمثيل مارغو روبي وجورني سْمولّيت . بِل (الصورة): منبثقاً من عالم «جوكر» وسيرته، يتابع الفيلم حكاية هارلي كوين المنفصلة عن الجوكر والباحثة عن مسار حياتي مستقلّ لها، بعيداً عن الجميع. لكنّها تحتاج إلى حماية بعد اكتشافها أنّ هناك من يريد قتلها، فتعثر عليها (الحماية) في شخصية المهرّج، ملك الجريمة.

■ Midway لرولاند إيميريك، تمثيل وودي هارلسون ولوك إيفانز وماندي مور (الصورة): يسرد الفيلم حكاية الأشهر الستة الأولى من حرب المحيط الهادئ بين الولايات المتحدّة الأميركية واليابان بدءاً من عام 1941، ويُركّز على مهمات طياري حاملة الطائرات «يو أس أس إنتربرايز» وقائد الاستخبارات إدوين تي. لايتن.

أهذه هي السينما المصرية المطلوبة؟

فيلمان مصريان حديثا الإنتاج يعكسان شيئاً من أزمة ابتكار نصّ سينمائي، ومعالجة بصرية، وتوثيق فنّي لعيشٍ يوميّ يُسرف أفرادٌ كثيرون في عيشه: «صاحب المقام» لمحمد جمال العدل و«رأس السنة» لمحمد صقر، المُنتجان عام 2020. يغرق الأول في تنظير فكري إيديولوجي غير سينمائيّ البتّة، يتناول مفاهيم الأخلاق والتوبة وتقديس مقامات الأولياء والتواصل مع ماورائيات، في زمن الانكسار والخيبة من أحوال الأرض وناسها. يقع الثاني في ثرثرة مُطوّلة عن شؤون بيئة ثرية، وتفكّك عائلاتها وأفرادها، وانهماك فقراء في تذلّل من أجل لقمة عيش «نظيفة»، وإنْ تأتيه من جيوب أناسٍ يُغامرون بحيواتهم من أجل متع عابرة.

للفكر أهمية، يُفترض بها ألّا تغلب السينمائيّ في فيلمٍ، يُراد له أنْ يجذب مشاهدين كثيرين إلى عوالمه، كما إلى تفكير أصحابه. مع «صاحب المقام»، تغيب السينما. مع «رأس السنة»، تتقلّص السينما بسبب إطالة مدّة سرد الأحداث، وبسبب ثقل مَشاهد غير نافعة. في القاهرة، هناك ثريّ (آسر ياسين) متعجرف وغير مهتمّ بعائلته (زوجة وابن)، يصطدم بحالة صحّية خطرة لزوجته، بعد هدمه مقاماً، فيبدأ رحلة التوبة الناقصة بحثاً عن خلاصٍ لامرأته، وسعياً إلى ترميم ذاته. الأثرياء في الغردقة أو محيطها يهيمون في أزقّة أرواحهم المُصابة بأعطاب، وتتشتّت مساراتهم ومصائرهم، ويُظهرون عطباً في أحوالهم يحتاج (إظهار العطب) إلى فعل سينمائيّ يبتعد عن المباشرة والتسرّع.

تغيب السينما، فثرثرة التنظير الفكري لـ«صاحب المقام» إبراهيم عيسى مملّة ومسطّحة وساذجة وغير مُعالَجة سينمائياً بشكلٍ كافٍ. وثرثرة أغنياء الغردقة في «رأس السنة» تحتاج إلى تخفيف، كلامي وبصري، كي تتكامل تلك القصص الحياتية اليومية في قالبٍ سرديّ يتماسك في بناء درامي وجماليّ يفقده الفيلم غالباً. غياب حدّ فاصل بين وهم وواقع (شخصية روح في «صاحب المقام»، التي تؤدّيها يُسرا) يُسيء إلى حبكةٍ محتاجة إلى تأهيل سينمائيّ؛ وامتناع «رأس السنة» عن لجم طول مشاهد وحوارات لا فائدة منها سببٌ في إثارة نوع من ملل في متابعة تلك الحكايات المعروفة أصلاً.

هذا مأزق يطرح تساؤلاً: أهذه هي الصورة المطلوبة لإنتاجٍ سينمائي مُنتظر؟

نديم...